والعبودية الى صراع بين الغرب والشرق، حيث «ما زالت الحرية، حتى الآن، علاقة مميزة بين الشرق والغرب» (ص ٣٣٠). هذا الصراع جاء نتيجة فرز تاريخي بين الشرق والغرب، حسب الكاتب: «فقبل سبعة قرون من الزمن، وقع حدثان كبيران، حدّدا اتجاهي مدنيتين... ففي انكلترا أرغم تمرّد الأشراف الملك جون على توقيع الماغنا كارتا العام ١٢١٥؛ ومن تلك الوثيقة نبع مفهوم الملكية الدستورية، ثم صيغة الحريات الفردية، والحكومة الذاتية الديمقراطية، التي نقلت الى العالم الحديث، وترعرعت وازدهرت بولادة وتطور الولايات المتحدة... [بالمقابل] كان أحفاد جنكيز خان يقومون باجتياحهم نحو الغرب... وأوقفت حشود المغول على مقربة من وسط أوروبا، لكنهم عاثوا في روسيا فساداً... وفرضوا على روح الروس انطباع قساوتهم، ورعونتهم... وهكذا، فان هذين الحدثين، أي توقيع الماغنا كارتا واذلال المغول للروس، قد شكلا نقطتي البداية لسلسلتين من التطور التاريخي، وهما تختلفان، اختلافاً جذرياً؛ فوثيقة ' اعلان الحقوق ' مرتبطة بنشوئها بالماغنا كارتا؛ أمّا الدولة السوفياتية البوليسية، فمرتبطة بالتتر» (ص ٧٢ ـ ٧٣). ثمّ استعرض سيطرة القياصرة على روسيا بعد حكم التتر وطابع دولتهم التوسعية التي أنشأوها (ايفان الكبير) وطابعها القمعي (ايفان الرهيب)، ليستخلص انه «من جوانب عديدة نجد أن الثورة التي مكّنت الشيوعية من التوصل الى السلطة في روسيا لم يكن عملها تبديلاً للطرق القيصرية، بل جاء أشبه بأعمال التنقية والتعزيز لتلك الطرق؛ فلم تكن روسيا، في يوم من الأيام، قوة غير توسعية» (٧١)، و «ان ما يسمّى، اليوم، بـ ' اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ' هو حصيلة سبعة قرون من الاحتلال، وذلك من قبل ' الأمراء الموسكوفيين ' ... الذين وسعوا الأمبراطورية الروسية» (ص ٧٨)؛ «كما أنها لم تكن، فيما عدا أشهر عديدة العام ١٩١٧، دولة غير استبدادية وغير ديكتاتورية. وبكل بساطة، ليس هناك في روسيا، أي عرف للحرية داخلياً، والنزعة اللاعدوانية خارجياً» (٧١). ولذا، «كان ستالين من المعجبين بايفان الرهيب؛ لذلك عمد الى احياء ذكراه وتحسين سمعته في كتب التاريخ السوفياتية» (ص ٧٩). ورأى أن أكبر اخفاق في التاريخ «وأغلاه ثمناً، هو الاخفاق في الحيلولة دون تسلّم لينين للسلطة في روسيا العام ١٩١٧؛ ولقد كان ذلك الاخفاق بمثابة مأساة حلّت بالشعب الروسي وبالعالم بأسره» (ص ٨٣). مع ذلك، اعلن ان هذا ليس معناه القول «ان الشعب السوفياتي، أو حتى بالضرورة قادته، سيئون بالوراثة... لكنني أكره الشيوعية وما تفعله للشعب؛ فالشيوعيون منتجات نظام صارم وورثة تقليد قاس؛ فهم يتصرفون غريزياً كالنمر الذي يأكل البشر» (ص ٣٣٤).

وبنتيجة الحربين العالميتين، الاولى والثانية، التي شهدها النصف الأول من القرن العشرين، تمّ «القضاء على النظام العالمي الذي أوجده الأوروبيون، وتمخضتا عن الاتيان بالشيوعية الى مركز السلطة في كل من [الاتحاد السوفياتي] والصين، وقضتا على القوى الخمس التي كانت تبقي [الاتحاد السوفياتي مقيّداً]؛ وجرّتا الولايات المتحدة الى خضمّ السياسة العالمية قبل ان تكون مستعدة لذلك» (ص ٩٣). ونتائج ذلك تعني «بالنسبة الى الولايات المتحدة... انتهاء البراءة؛ أمّا بالنسبة الى اوروبا، فقد كان يعني نهاية الامبراطورية؛ وبالنسبة الى شعوب [الاتحاد السوفياتي] والصين وعشرات من الدول الأخرى، فقد كان يعني أهوال حكم الشيوعيين؛ وأما بالنسبة الى القادة السوفيات، فيعني انتهاء الكبح الذي كانت تشكله قوى عظمى أبقت التوسع السوفياتي تحت مراقبتها» (الصفحة ذاتها). وللسوفيات ـ حسب الكاتب ـ هدف، هو «انتصارهم غير المشروط، واذعان الغرب غير المشروط؛ أمّا استراتيجيتهم، فتتضمن استخدام وتهيئة كافة السبل بأقصى ما يستطيعونه من الاحتراز نحو الوصول الى غايتهم النهائية... وفي الحرب العالمية الثالثة، لن يكون البديل من النصر، على المدى البعيد، هدنة غير سهلة، بل هزيمة في الحرب، أو الاستسلام بدون حرب، وهذا أمر غير مقبول... والأميركيون غير معتادين على التفكير على أسس عالمية، ولا يشعرون بالراحة بممارسة القوة ما لم يثاروا بشكل مباشر، كما كانت الحال بالنسبة الينا في بيرل هاربر؛ لذا، يجب ان يكون من الواضح الآن ان التحدي السوفياتي يشكّل اثارة لنا على نطاق عالمي» (ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠). وباعتبار ان أميركا تركت وحدها، بعد الحرب العالمية الثانية، تتصدر موقع القيادة للغرب، رأى الكاتب أن قيادة العالم تتطلب «شيئاً غريباً من جوانب شتى على العقل الأميركي؛ انها تتطلب وضع حدود للمثالية، ومسايرة الواقع، وفي بعض الأحيان مقابلة الازدواجية بالازدواجية، وحتى الوحشية بالوحشية... [وهي] تتطلب السير الى الملعب وأداء لعبة دبلوماسية القوة... حتى ولو كانت القواعد المفروضة على اللعبة